

الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي

بمقتضى
الدكتور زكى نجيب محمود

أستاذ الفلسفة بكلية الآداب - جامعة القاهرة

حلى فانى عاطل ؛ قد أذلى السفر من بلد إلى بلد ،
وخذلى الوقوف على باب باب ، ونكرنى العارف بى ،
وتباعد عنى القريب منى » .

ولعل أبا الوفاء المهندس قد استجاب إلى استغاثة
أبى حيان فأغاثة ، بأن قدمه إلى الوزير أبى عبدالله
العارض ، فجعله الوزير من سمارة ، وسامره أبو حيان
ثمانى وثلاثين ليلة^(١) ؛ وبعدئذ طلب أبو الوفاء من
أبى حيان أن يسجل كل ما دار بينه وبين الوزير ،
وهكذا فعل أبو حيان ، فكان من ذلك هذا الكتاب
الذى نقدمه .

(١) فى نشرة الكتاب التى أصدرها المرحومان الأستاذان أحمد
أمين وأحمد الزين ، ذكرت أربعون ليلة ، وفى المقدمة التى كتبها
الأستاذ أحمد أمين ورد أن الليالى عددها سبع وثلاثون ، لكنى عدتها
فوجدتها ثمانى وثلاثين ، ذلك أن اللياليتين العاشرة والحادية عشرة قد
أدجمتا فى ليلة واحدة ، ثم جاء العدد الترتيبى بعد ذلك يقول « الليلة
الثالثة عشرة » ولم تذكر الليلة الثانية عشرة ، وقد بلغ العدد اختتامى
فى النشرة السالفة الذكر « أربعين ليلة » ، فإذا طرحنا الليلة الحادية
عشرة المدججة فى العاشرة ، واللييلة الثانية عشرة المتروكة ، كان العدد
ثمانى وثلاثين . هذا من حيث عدد الليالى بحسب تقسيم الكتاب ، أما من
حيث عددها من حيث الحادثة ، فقد كانت - على حسابى - تسعا
وثلاثين .

كان أبو حيان التوحيدي بائساً فى حياته وبعد
مماته ، أما فى حياته فقد عاش فقيراً ، وأما بعد موته فلم
يجد من المؤرخين من يترجم له ترجمة وافية ، وذلك
برغم اتساع آفاقه وعمق أغواره ، حتى ليعد الفيلسوف
الأديب المعبر عن ثقافة النصف الثانى من القرن الرابع
المهجري ؛ فاسمع هذه الرسالة الحزينة التى يحتم بها الجزء
الثالث من كتاب الإمتاع والمؤانسة ، موجهاً إياها إلى
صديقه أبى الوفاء المهندس الذى كان له فضل تقريبه من
الوزير أبى عبدالله العارض وهو الوزير الذى قيلت فى
حضرته أحاديث السمر الثقافى التى جمعت فى كتاب
الإمتاع والمؤانسة - اسمع هذه الرسالة الحزينة التى يحتم
بها أبو حيان كتابه هذا ، فهو يقول : « خلصنى أيها
الرجل من التكفف ، أنقذنى من لبس الفقر ، أطلقنى
من قيد الضر ، اشترى بالاحسان ، اعتبدنى بالشكر . . .
اكفى مؤونة الغداء والعشاء ؛ إلى متى الكسيرة اليابسة
والبقيلة الزاوية ، والقميص المرقع . . ؟ إلى متى التأدم
بالخبز والزيتون ؟ . . . اجبرنى فانى مكسور ، أسقى
فانى صد ، أغنى فانى ملهوف ، شهرنى فانى غفل ،

وقد حقق الأستاذ أحمد أمين في مقدمته لهذا الكتاب شخصية هذا الوزير وانتهى إلى أنه هو الوزير أبو عبدالله الحسين بن أجد بن سعدان ، وزير صمصام الدولة البويهى ، وقد استوزره صمصام الدولة سنة ٣٧٣ لما تقلد الأمور بعد وفاة أبيه عضد الدولة ، وظل ابن سعدان فى الوزارة إلى سنة ٣٧٥ ، وقد كان له إبان وزارته ندوة يجمع فيها العلماء والأدباء ، منهم ابن زرع الفيلسوف النصرانى ، ومسكويه ، وأبو الوفاء المهندس (الذى قرب أبا حيان من مجلس الوزير) .

وأما أبو الوفاء المهندس ، الذى من أجله كتب كتاب الإمتاع والمؤانسة ، فقد قال عنه ابن خلكان « إنه أحد الأئمة المشاهير فى علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها . . . وكانت ولادته سنة ٣٢٨ بمدينة بوزجان وقدم العراق سنة ٣٤٨ ، وتوفى سنة ٣٧٦ » وعلى هذا التاريخ يعلق الأستاذ أحمد أمين بقوله إن ابن خلكان قد ذكر أنه نقل تاريخ الوفاة هذا من شيخه ابن الأثير ، ولكن الذى فى ابن الأثير أنه عد وفاته فى حوادث سنة ٣٨٧ فاما أن ابن خلكان أخطأ فى النقل أو أن الناسخ أخطأ فى الكتابة .

وإنه ليقال إن أبا حيان قد ألف نحو عشرين كتاباً ، لكن لم يبق منها إلا عدد قليل ، منها كتاب « الهوامل والشوامل » (نشره الأستاذان أحمد أمين والسيد أحمد صقر) و « الصداقة والصدق » و « البصائر والذخائر » (نشره الأستاذان أحمد أمين والسيد أحمد صقر) و « المقابسات » و « الاشارات الهية » (نشره الدكتور عبد الرحمن بدوى) - وكتاب « الإمتاع والمؤانسة » الذى تقدمه هذا المقال ، وقد ألفه لابن سعدان - كما قلنا - سنة ٣٧٤ ؛ والظاهر أن أسبقها تأليفاً هو الهوامل والشوامل (راجع مقدمة أحمد أمين للهوامل والشوامل

- ص : ى) وتبعه الإمتاع والمؤانسة ، ثم الصداقة والصدق ، وأما الذخائر والبصائر فقد ذكر فى مقدمته أنه بدأ به سنة ٣٧٥ وأتمه بعد خمسة عشر عاماً ، ثم جاء كتاب المقابسات ، لأنه ذكر الهوامل والشوامل فى المقابسات ، وقد ألف الصداقة والصدق للوزير ابن سعدان إبان وزارته - ووزارته من ٣٧٣ إلى ٣٧٥

— — —

يدور السمر فى كتاب الإمتاع والمؤانسة على ليال ، لكل ليلة موضوع رئيسى يحدده الوزير بسؤال يلقيه ، لكن سرعان ما يستطرد ويتشعب فيتناول أموراً كثيرة متنوعة ، وغالباً ما يختم « بملحة وداع » - وفيما يلى موجز سريع لأهم ما دار من أحاديث خلال الليالى الثمانى والثلاثين .

- ففى الليلة الأولى جرى السمر حول متعة الحديث ، وخصائص الحديث الجيد ، وخلاصة الرأى هنا أن الحديث الجيد هو الذى يجرى على أحكام العقل ويشتمل على فكاهة ، ويكون ذا جدة وطرافة ؛ وإن الإنسان ليسأم من كل شىء إلا من الحديث الطلى ؛ ففى المحادثة تلقيح للعقول ، وترويح للقلب ، وتسريح للهم ؛ وتنقيح للأدب ؛ وأما الموضوعات العرضية التى تناولها الكلام فى الليلة الأولى ، فتجديدات لغوية تفرق بين معنى كلمة « عتيق » ومعنى كلمة « قديم » وذلك بمناسبة المقارنة بين الحديث الذى يكون فيه جديد والحديث الذى يذكر القديم ؛ « التعجب كله منوط بالحادث ، وأما التعظيم والإجلال فهما لكل ما قدم » ؛ وكذلك تناول أبو حيان بالتحديد معانى هذه الكلمات : حادث ، ومحدث ، وحديث ؛ وأخيراً ختمت الليلة بملحة الوداع ، وهى نكتة عن بناء بنى جداراً لرجل ، وبينما هما مختلفان على الأجر ، سقط الجدار ، فقال

الرجل للبناء : هذا عملك الحسن ؟ فقال البناء وهل أردت أن يبقى الجدار قائماً ألف سنة ؟ فأجاب الرجل : لا ، ولكن كائن يبقى إلى أن تستوفى أجرتك .

— ويدور حديث الليلة الثانية حول شخصيات بارزة عندئذ في العلم والأدب ، يصفهم أبو حيان للوزير ويقول رأيه فيهم ؛ ففهم أبو سليمان المنطقي الذي يقول عنه : « أما شيخنا أبو سليمان فإنه أدقهم نظراً ، وأقهرهم غوصاً ، وأصفاهم فكراً ، وأظفرهم بالدرر ، وأوقفهم على الغرر ، مع تقطع في العبارة ، ولكنة ناشئة من العجمة ، وقلة نظر في الكتب ، وفرط استبداد بالخاطر ، وحسن استنباط للعويص ، وجراحة على تفسير الرمز ، وبخل بما عنده من هذا الكنز » .

ومنهم ابن زرعه ، فهو « حسن الترجمة ، صحيح النقل ، كثير الرجوع إلى الكتب ، محمود النقل إلى العربية ، جيد الوفاء بكل ما جل من الفلسفة » ومنهم ابن الخمار ، وابن السمع ، والقومسي ، ومسكويه الذي يصفه بقوله : « فقير بين أغنياء ، وعبي بين أبناء ، لأنه شاذ . . » ومنهم عيسى بن علي ، ونظيف ، ويحيى بن عدى ، ويقول عنه : « إنه مشوه الترجمة ودئ العبارة ، ولكنه كان متأنياً في تخريج المختلفة . . »

— أى في تخريج المسائل المختلفة .

فطلب منه الوزير أن يحدثه عن آراء هؤلاء العلماء في « النفس » فأخذ أبو حيان يفصل القول في ذلك ، وملخص ما قاله أنهم متفقون على أن النفس جوهر خالد ؛ وكان من أدق ما قاله كذلك في العلم بمسائل الحكمة أنه وسط بين اليقين الكامل وبين اليأس من المعرفة ؛ وكذلك قال في علم الطب إنه وسط بين الصواب والخطأ ، وفي الحياة أنها وسط بين السلامة والعطب ، وكذلك فرق أبو حيان بين العلم والتعليم ،

« فالعلم صورة المعلوم في نفس العالم ، وأنفس العلماء عالمة بالفعل ، وأنفس المتعلمين عالمة بالقوة ، والتعليم هو إبراز ما بالقوة إلى الفعل ، والتعليم هو بروز ما هو بالقوة إلى الفعل » — وختمت الليلة بأربعة أبيات في الغزل .

— وفي الليلة الثالثة يدور الحديث عن بعض رجال السوء ، فبهرام « رجل مجوسى معجب ذميم ، لا يعرف الوفاء ولا يرجع إلى حفاظ » وابن كخيا « رجل نصراني أرعن خسيس ، ما جاء يوماً بخير قط لا في رأى ولا في عمل ولا في توسط » وهكذا .

— وتدور الليلة الرابعة كلها تقريباً على الحديث عن ابن عباد ، يسأل الوزير أبا حيان رأيه في ابن عباد وما يقال في ذمه أحياناً ، فيقول أبو حيان « إن الرجل كثير المحفوظ حاضر الجواب فصيح اللسان . . » ويمضى في تحليل شخصيته تحليلاً مسهباً ، ويقول عنه إنه يمدح نفسه بشعر ثم يعطيه لمن يلقيه كأنما هو شعر قيل فيه من سواه ، فهو محب للثناء لدرجة الإسراف ، وهو مزيج من عقل وحمق ؛ ويأخذ أبو حيان في مقارنته بابن العميد ؛ ويصف ابن عباد بمرض النفس ، « فللنفس أمراض كأمراض البدن » ؛ وهكذا أعطانا أبو حيان صورة مفصلة عن جوانب ابن عباد : فضائله وعيوبه ؛ ومما ورد في هذه الليلة كذلك ذكر لأعلام العلماء والأدباء وما يمتاز فيه كل منهم ؛ فالتحليل في العروض ، وأبو عمرو بن العلاء في اللغة ، وأبو يوسف في القضاء ، والاسكافي في الموازنة ، وابن نوبخت في الآراء والديانات ، وابن مجاهد في التراءات ، وابن جرير في التفسير ، وارسطوطاليس في المنطق ، والمكندى في الجوهر الفرد (الجزء الذى لا يتجزأ) ، وابن سيرين في العبارة ، وأبو العيئة في البدنية ، وابن

أبي خالد في الخط ، والجاحظ في الحيوان . . الخ .

ومن أصدق ما جاء في حديث هذه الليلة ، قول أبي حيان بضرورة التثقيف لمن يتصدى للكتابة الأدبية مع التواضع في تقديره لنفسه ، قال : « ليس شيء أنفع للنشئ من سوء الظن بنفسه ، والرجوع إلى غيره ، وإن كان دونه في الدرجة ، وليس في الدنيا محسوب (أى ليس فيها أحد) إلا وهو محتاج إلى تثقيف ، والمستعين أحزم من المستبد . . » ومن لطيف ما قاله في التفرقة بين كتاب يكتب وحديث يقال ، أن الكاتب لا يشفع له خطؤه أن يكون قد أسرع في الكتابة ، فليس يعلم القارئ أسرع في كتابة ما كتبت أم أبطأت « وإنما ينظر أصبت فيه أم أخطأت وأحسنت أم أسأت » .

— وفي الليلة الخامسة عود إلى الحديث عن ابن عباد ، ثم الحديث عن أبي اسحق الصباني ؛ أما ابن عباد فقد نجح رغم عيوبه لأن أحداً لا يقول له أخطأت ، فن كان مجدوداً يجعل الناس خطؤه صواباً ، وأما أبو اسحق الصباني « فانه أحب الناس للطريقة المستقيمة . . وإنما ينقم عليه قلة نصيبه من النحو » .

— وأما الليلة السادسة فحديثها عن خصائص الأمم : فالفرس تقتدى ولا تبتكر ، والروم لا يحسنون إلا البناء والهندسة ؛ والصين أصحاب صنعة لا فكر لها ولا روية ، والترك سباع للهراش ، والهند أصحاب وهم وشعبذة ، وأما العرب فقد علمتهم العزلة التفكير ، وساعدتهم بيئتهم على دقة الملاحظة ، وهم ذوو قيم خلقية عليا .

ومن رأى أبي حيان أن الفضائل موزعة بين الأمم ، وإذا وصفت أمة بفضيلة أو برذيلة فلا يكون ذلك إلا على

سبيل التعميم في القول ، ولذلك إذا أريدت مقارنة بين أمة وأمة وجب أن يفاضل بين الكامل في كل منهما أو بين الناقص في كل منهما ؛ وإن تعصب الإنسان لقومه ليجعل من العسير عليه أن يقول أى الأمم أفضل من سواه ، فلكل أمة عصر تعلق فيه ثم يجيء عصر آخر فتعلق أمة أخرى ، وهكذا ، وليس من الانصاف أن نقارن أمة لابان صعودها بأخرى لابان هبوطها .

على أن أبا حيان يعود فيخص العرب بالثناء ، ويتناول بحديثه اللغة العربية فيقول إنه استعرض غيرها من اللغات فلم يجد في أى منها « نصوع العربية ، أعنى الفرج التي في كلماتها ، والفضاء الذي نجمده بين حروفها ، والمسافة التي بين مخارجها . . الخ » ؛ ويتصدى أبو حيان لما قاله الجيهاني في ذم العرب ، ليتولى الدفاع عنهم أمجد دفاع وأبلغه .

— وفي الليلة السابعة مقارنة بديعة بين علم الحساب والبلاغة أيهما أنفع — أو قل بين العلوم الرياضية وفنون الأدب — فقد كان هناك من فضل الأولى على الثانية ، لأن الأولى جد والثانية هزل ، والأولى مستندة إلى مبدأ موصولة بغاية وحاضرة الجدوى ، أما الثانية فزخرفة وحيلة ، والأولى شبيهة بالماء والثانية شبيهة بالسراب ، ولئن اكتفت الدولة بكتاب واحد ، فلا يكفيها مائة محاسب .

ويرد أبو حيان بقوله إنه لا غنى للحساب نفسه عن الانشاء ؛ وإن البلاغة مستندة إلى عقل ، لأن بها تقام الحججة ؛ فهي تبدأ بأفكار عقلية ثم تمر خلال ألفاظ ، وأخيراً تستقر في خط ، وأما أن الدولة يكفيها منشئ واحد فليس حجة على شيء ، لأننا نحتاج إلى خياطين أكثر مما نحتاج إلى أطباء ، ولا يدل ذلك على

أن صناعة الطب دون صناعة الخياطة ، وليس صحيحاً
أن الكلام المنطوق يؤدي المعنى ، لأن المعنى يتغير دائماً
بتغير الإعراب .

— أما الليلة الثامنة فقد رويت فيها مناقشة فلسفية
دقيقة عميقة كانت قد دارت بين أبي سعيد السيرافي
وأبي بشر متى بن يونس القناني في حضرة الوزير ابن
الفرات عن المنطق اليوناني والنحو العربي (وهي مناقشة
وردت أيضاً في كتاب المقابسات لأبي حيان التوحيدي)
وخلصت الرواية أن الوزير ابن الفران كان قد سأل
مجالسبه ذات يوم إن كان بينهم من يستطيع أن يتصدى
لمناظرة أبي بشر متى في المنطق ، فانه يقول أن « لا سبيل
إلى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب والخير
من الشر والحجة من الشبهة والشك من اليقين إلا
بالمنطق » ؛ فاستجاب أبو سعيد السيرافي لدعوة الوزير
ثم واجه متى فقال : حدثني عن المنطق ما تعني به ؟
فقال متى : أعني به أنه آلة من آلات الكلام يعرف
بها صحيح الكلام من سقيمه ، وفاسد المعنى من
صالحه ، كالميزان ، فاني أعرف به الرجحان من
النقصان ؛ فقال أبو سعيد رداً على ذلك إن صحيح
الكلام من سقيمه يعرف بالإعراب المعروف إذا كنا
نتكلم بالعربية ، وفاسد المعنى من صالحه يعرف بالعقل
إذا كنا نبحث بالعقل ؛ وكأنما أبو سعيد يريد بذلك أن
يقول إن صورية المنطق وحدها لا تغني ، إذ لا بد من
معرفة حقائق المواد المرتبط بعضها ببعض بتلك الصور ؛
والتشبيه بالميزان ناقص ، لأن من الأشياء ما لا يوزن ؛
وإذا كان المنطق الأرسطي ملزماً لمن يتكلم اللغة اليونانية
فليس هو ملزم لمن يتكلم العربية .

فيرد متى قائلا إن المنطق يعني بالمعقولات ،
والناس في المعقولات سواء ، فأربعة وأربعة تساوي

ثمانية عند اليونان وعند العرب وعند غيرهما من الأمم
على السواء ؛ فيعود أبو سعيد إلى الكلام قائلا : إن
التشبيه بأربعة وأربعة وأنها تساوي ثمانية عند كل الأمم
هو تشبيه لا يؤدي ، لأن حقائق الرياضيات بينة ، على
خلاف المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ ؛ على
أننا إذا كنا نعني بالمعقولات تلك المعاني التي يوصل إليها
باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف ، فقد لزمنا
الحاجة إلى معرفة اللغة ؛ فكيف ندرس منطق اليونان
دون لغتهم ، فضلاً عن أننا ننقل المنطق اليوناني عن
اللغة السريانية ، والمعاني أنما يصيبها التحول عند الترجمة
من لغة إلى لغة ؟ وهنا يقول أبو بشر متى إن الترجمة
عن اليونانية تكفيننا في هذا الصدد ؛ ويعود أبو سعيد
إلى الرد قائلا : افرض أن الترجمة تكفيننا في ذلك ،
فهل اختص اليونان دون سواهم بالعقل ؟ أليس العلم
مقسماً بين الأمم ؟ أليس اليونان كغيرهم من الناس
يصيبون ويخطئون ، ومع ذلك فليس واضع المنطق
أمة بأسرها ، بل هو رجل واحد ؛ هذا إلى أن منطق
لم يغير من العالم شيئاً ، لأن الأمر مرهون بالفطرة ،
وحال الناس من حيث الفطرة هي بعد ظهور المنطق
كما كانت قبل ظهوره ؛ إننا نعلم أن عقول الناس
متفاوتة فكيف تزعم أن في وسع المنطق أن يسوي
بينها جميعاً ؟

ويسأل أبو سعيد مناظره فيقول : هل في وسع
المنطق الأرسطي أن يدلنا على معاني حرف الواو في اللغة
العربية ؟ فقال له متى : هذا نحو وليس هو من شأن
المنطق ؛ فأجابه أبو سعيد بأن المنطق هو نحو والنحو
هو منطق ؛ فإذا كانت المعاني مشاعاً بين الأمم ، فلا
تكون يونانية ولا هندية ، وإنما يكون الاختلاف في
اللغة التي يعبر بها كل قوم عن تلك المعاني ، إذن فدراسة

اللغة لا مندوحة عنها ؛ ويضرب أبو سعيد مثلاً بالحرف في اللغة العربية : الواو والباء وحرف « في » فلكل منها أحكام تقضى بها قواعد اللغة العربية ، وليست هي نتاجاً للعقل اليوناني ، مما يبين أنه لا بد للمنطقي من دراسة اللغة التي بها يكون التفكير ؛ فالنحو يمس المعاني ولا يقتصر أمره على اللفظ .

إنه بغير مادة الفكرة لا يوصل إلى حل لأي مشكلة ، فالمنطق في صورته المجردة لا يرفع خلافاً بين متناظرين ولا يؤدي بصاحبه إلى معتقدات بعينها ؛ وخلاصة القول عند أبي سعيد السيرافي أن دراسة المنطق دون دراسة اللغة العربية لا تجدى نفعاً .

وبعد الفراغ من هذه المناقشة الفلسفية ينتقل الحديث في تلك الليلة الثامنة إلى وصف لشخصية أبي سعيد السيرافي وإلى آخرين غيره كأبي علي النحوي ، وعلى ابن عيسى وطائفة من الشعراء ، ثم يتناول الحديث مسكويه ، وابن نباتة وغيرهما ، فكأنما هي سبيل حافل لحركة علمية ثقافية واسعة المدى .

— وفي الليلة التاسعة أوصاف دقيقة لصنوف الحيوان وما تتميز به ، وكيف أن صفات الحيوان موجود مثلها في الإنسان ، إذ في الإنسان وحده تتجمع صفات الحيوانات كلها ، فهو إذن مختلف عنها لا بالنوع ولكن بكثرة ما فيه من صفات ؛ تجمعت فيه وتفرقت في الحيوان ؛ فللسبع والفأرة صفة الكون ، وللذئب صفة الثبات ، وللخزير صفة الخدر ، وهكذا ؛ وانظر مثلاً إلى الصفات التي لا بد من توافرها في القائد تجدها كلها مما ينصف به الحيوان أيضاً : « ينبغي للقائد العظيم أن يكون فيه عشر خصال من ضروب الحيوان : سقاء الديك ، وتحن الدجاجة ، ونجدة الأسد ، وحملة

الخزير ، وروغان الثعلب ، وصبر الكلب ، وحراسة الكركي ، وجذر الغراب ، وغارة الذئب ، وسمن « بعروا » — وهي دابة بخراسان تسمن على التعب والشقاء » .

نعم إن من أهم ما يفرق بين الحيوان والإنسان أن الأول يعمل مدفوعاً بالهام على حين أن الثاني يعمل بعد اختيار إرادى منه ، لكن للإنسان من الهام الحيوان نصيباً ، كما أن للحيوان من اختيار الإنسان نصيباً .

وذكر أبو حيان أن للإنسان أنفساً ثلاثاً : النفس الناطقة ، والنفس الغضبية ، والنفس الشهوانية ، وأن لكل نفس منها أخلاقها ، فمن خصال النفس الناطقة أن تبحث عن حقيقة الإنسان والكون والله ، وكذلك من وظائفها أن تضبط نوازع النفسين الآخرين ؛ وبعد ذلك أخذ أبو حيان يتناول الفضائل وأضدادها واحدة واحدة ليحدد مقوماتها وعناصرها ؛ فما الحسن وما القبيح ؟ ما الصواب وما الخطأ ؟ ما الخير وما الشر ؟ ما العدل وما الجور ؟ ما الشجاعة وما الجبن . . الخ .

ويحتم أبو حيان القول في الأخلاق بأن يصنف الناس من حيث أخلاقهم بحسب أمزجتهم ؛ فإذا غلبت الحرارة على الإنسان كان شجاعاً بذلاً ملتهباً سريع الحركة والغضب قليل الحقد زكى الخاطر حسن الإدراك .

وإذا غلبت عليه البرودة كان بليداً غليظ الطباع ثقيل الروح .

وإذا غلبت عليه الرطوبة كان لين الجانب سمح النفس سهل التقبل كثير النسيان .

وإذا غلبت عليه اليبوسة كان صابراً ثابت الرأي صعب القبول .

ومما هو جدير بالذكر عن هذه الليلة أن أبا حيان يذكر فيها أنه قد أضاف من عنده عند الكتابة ما لم يرد في غصون الحديث ، وذلك استكمالاً للموضوع .

— وفي الليلتين العاشرة والحادية عشرة قرئ بحث عن خصائص الحيوان ، منها ما هو فسيولوجي ومنها ما هو متصل بالطباع .

— وفي الليلة الثالثة عشرة^(١) قرئ بحث فلسفي عن النفس ، فهي تعمل بغير عضو خاص من أعضاء البدن ، ولذلك فهي لا تفسد بفساد البدن ؛ هي جوهر لا مادي ، وغير قابل للمقاييس الكمية ؛ ينتقل الحديث إلى الحركة ، فهي إما من داخل : وعندئذ تكون إما حركة داخلية متواصلة وإما حركة داخلية تسكن أحياناً ، أو من خارج : وعندئذ تكون إما حركة بالدفع من خلف أو بالجبر من أمام ، وحركة الجسم الإنساني إنما تكون بفعل نفس ؛ وإذن فالنفس حية ، وهي جوهر قابل لأن تطرأ عليه الأضداد دون أن يتغير هو في جوهريته ؛ وقوام النفس بذاتها لا بكونها حالة في بدن ؛ ومن الفوارق بين الجسم والنفس أن الجسم لا يقبل صورة إلا إذا زالت عنه الصورة التي كانت حالة فيه ، لأن الضدين لا يجتمعان فيه ، أما النفس فتقبل الصور الأضداد دفعة واحدة .

— أما الليلة الرابعة عشرة فتبدأ بمعنى السكينة وأنواعها ، فهناك سكينة طبيعية وأخرى نفسية وثالثة عقلية ورابعة إلهية ، أما الطبيعية فهي اعتدال المزاج في العناصر الطبيعية ، وأما النفسية فهي ما نسميه بالروية

(١) قد رتب خطأ في نشرة الأستاذين أحمد أمين وأحمد الزين بحيث جعلت الليلة الثالثة عشرة ، ثم تابع الخطأ في العدد الترتيبي بعد ذلك إلى نهاية الكتاب بأجزائه الثلاثة — وحقيقتها أنها الليلة الثانية عشرة ، لكننا نؤثر الإبقاء هنا على الترتيب الموجود في الكتاب لسهولة المراجعة .

حين تأتي مماثلة لحكم البديهة ، والسكينة العقلية هي في التثام الخواطر والأفكار ، وأما السكينة الإلهية « فلا عبارة عنها على التحديد ، لأنها كالحلم في الانتباه ، وكالاشارة في الحلم ، وليست حلماً ولا انتباهاً في الحقيقة » أي أنها سكينة روحانية .

وبعد ذلك ينتقل الحديث إلى ما تشترك فيه الأمم وما تختلف فيه من صفات وخصائص ، فكلها مشتركة في الفطرة الواحدة ، وتأتي بعد ذلك أوجه الاختلاف ، فال يونان يميزهم الفكر ، والهند يميزهم الوهم (أي الخيال) والعرب ميزتهم الفصاحة ، والفرس السياسة ، والترک الشجاعة .

— وفي الليلة الخامسة عشرة حديث فلسفي عن « الممكن » و « الواجب » حكى فيه التوحيدى عن ابن يعيش الرقي رأييه فيهما ، فقال : « الممكن شبيه بالرويا لا بدن له يستقل به ، ولا طبيعة يتحيز فيها . . وكما أن الرويا ظل من ظلال البقطة ، والظل ينقص ويزيد إذا قيس إلى الشخص ، كذلك الممكن ظل من ظلال الواجب ، فطوراً يزيد تشابهاً للواجب ، وطوراً ينقص تشابهاً للممتنع ، وطوراً يتساوى بالوسط » « والواجب (ويقصد به في المصطلح الفلسفي ما هو ضروري الوجود) لا عرض له ، لأنه حـد واحد ، وله نصيب من الوحدة بدليل أنه لا تغير له ولا حيلولة لا بالزمان ولا بالمكان ولا بالحدثان ولا بالطبيعة ولا بالوهم ولا بالعقل » . . الخ . ثم ينتقل الحديث بعد ذلك إلى نقطة فلسفية أخرى ، هي التفرقة بين العقل والحس ، فالأول ثابت والثاني متغير ، ومما قاله في ذلك أن العقل يوصف بشهادة الحس ، وكذلك الحس يوصف بشهادة العقل ، « إلا أن شهادة الحس للعقل شهادة العبد للمولى ، وشهادة العقل للحس

شهادة المولى للعبد» و «العقل يحكم في الأشياء الروحانية البسيطة الشريفة من جهة الصور الرفيعة» بالقياس إلى الحواس التي تتعلق بالفاسدات البائئات المتغيرات ؛ وبعد ذلك انتقل الحديث إلى مسائل لغوية .

— وفي الليلة السادسة عشرة حديث عن الجبر والقدر ، تعليقا على كتاب العامري المعنون «إنقاذ البشر من الجبر والقدر» .

وبهذه الليلة انتهى الجزء الأول من كتاب الامتاع والمؤانسة .

— ويبدأ الجزء الثاني بالليلة السابعة عشرة ، وفيها بحث لغوي عن الكلمات التي على وزن تفعال (بكسر التاء) وتفعال (بفتح التاء) .

ثم ينتقل الحديث فيها عن إخوان الصفا ، ويقال إن هذا هو النص الوحيد الذي كشف لنا عن أفراد هذه الجماعة التي ألفت «رسائل إخوان الصفا» المشهورة في تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ثم نقله القفطي ، وعن القفطي نقله كل من كتبوا عن إخوان الصفا ، وعن هذه الجماعة الفلسفية يقول التوحيدى هنا : «وكانت هذه العصابة قد تآلفت بالعشرة ، وتضافت بالصدافة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهبا زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنته ، وذلك أنهم قالوا : الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة . . . وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة ، علميها وعمليها ، وأفردوا لها فهرستا وسموها رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء ، وكتبوا أسماؤهم . . . »

وعقب على ذلك التوحيدى بذكر بعض الآراء في تلك الرسائل ، ومنها ما يدحض قولهم في أن الشريعة من الفلسفة ، لأن الشريعة وحى إلهي ، نسلم بها ولا نعللها ، وهي لا تخضع للمقادير ، ولا تشبه العلم الطبيعي ولا علم الهندسة ، ولا تحتاج إلى المنطق ، وعند الاختلاف على شيء في العقيدة لا نلجأ إلى العلم «فأين الدين من الفلسفة ؟ وأين الشيء المأخوذ بالوحى النازل من الشيء المأخوذ بالرأى الزائل ؛ والعقل وحده لا يكفي ولا بد معه من وحى ينزل على نبي ، والنبي فوق الفيلسوف .

ثم يورد أبو حيان رد المقدسى على هذا كله ، «فالشريعة طب المرضى والفلسفة طب الأصحاء» — ثم رد الحريري على المقدسى في مقارنة الشريعة بالفلسفة ؛ ويورد كذلك رأى أبي سليمان المنطقي القائل بأن الشريعة والفلسفة كليهما حق ، دون أن تكون إحداهما مأخوذة من الأخرى ؛ وقد تجتمع الشريعة والفلسفة في رجل واحد وقد تظهر كل منهما على حدة وينتقل الحديث بعد ذلك إلى استطرادات في الحكمة وفي خصائص الحيوان وغير ذلك .

— والليلة الثامنة عشرة حديثها مجون وهزل ؛
— والتاسعة عشرة فيها أقوال حكيمة قرئت على الوزير .

— والعشرون تشتمل على أحاديث نبوية .
— والليلة الحادية والعشرون تتناول موضوع الغناء والموسيقى ؛ فلماذا تؤثر الموسيقى في العقل ؟ وفيها حديث عن حاستي السمع والبصر .

— وأما الليلة الثانية والعشرون فقد دار الحديث فيها حول موضوع فلسفي عويص ، هو موضوع الجزئي والكلّي وادراكهما والعلاقة بينهما ؛ ومن أبرع

ما قاله أبو حيان في ذلك - نقلاً عن أبي الحسن العامري - « الكلي مفتقر إلى الجزئي ، لا لأن يصير بديعومته محفوظاً ، بل لأن يصير بتوسطه موجوداً ، والجزئي مفتقر إلى الكلي ، لا لأن يصير بتوسطه موجوداً ، بل لأن يصير بديعومته محفوظاً (أى أن الكلي بحاجة إلى الجزئي ليتجسد فيه وجوداً فعلياً ، والجزئي بحاجة إلى الكلي ليدوم) .

ومما قاله في الكلي والجزئي أيضاً أن « ما هو أكثر تركيباً فالحسنى أقوى على إثباته ، وما هو أقل تركيباً فالعقل أخلص إلى ذاته » .

وفي هذه الليلة أيضاً حديث عن مشكلة الواحد والكثير ، وهى مشكلة معروفة في الفلسفة ، وذات علاقة بالكلي والجزئي ؛ وفيها أيضاً حديث عن أنواع الخطاب : خطاب العاقل للعاقل ، وخطاب العاقل للأحمق ، وحديث عن « العادة » ؛ وحديث عن الفقر ومعناه الصحيح ، فليس الفقر في قلة المال ، بل هو في كثرة الشهوات وإن كثر المال .

١ - وفي الليلة الثالثة والعشرين روايات عن النبي عليه السلام :

- وفي الرابعة والعشرين أحاديث عن الحيوان والنبات : أين تكون مواطنها وما طبائعها ؟ ثم حديث عن الروح والنفس .

- وأما حديث الليلة الخامسة والعشرين فنناظرة بارعة فيها موازنة بين النظم والنثر ؛ فبعد مقدمة طريفة عن كون الحديث في موضوع النظم والنثر كلاماً على كلام « والكلام على الكلام صعب . . . لأنه يدور على نفسه ، ويلتبس بعضه ببعضه ، ولهذا شق النحو وما أشبه النحو من المنطق ، وكذلك النثر والشعر » .

ثم رويت آراء تجبذ النثر وتفضله على الشعر : فالنثر أصل والنظم فرع ، والكتب المنزلة منشورة ، والوحدة أظهر في النثر منها في الشعر ، والنثر طبعي والشعر صناعي ، وترتيب الكلام في النثر لا يحتاج إلى تكلف ، والنثر من قبل العقل ، ونجوم السماء منشورة ؛ والأحاديث النبوية نثر .

وبعد ذلك رويت آراء في تفضيل الشعر ، فله صناعة تقتصر على القلة ، أما النثر ففي وسع الجميع ، والنظم صالح للغناء والحداء ، وشواهد النحو واللغة لا توجد إلا في الشعر ، والشعراء هم الذين ظفروا بجوائز الخلفاء .

وتحتم المحاوراة برأى معتدل ، فلكل من الشعر والنثر فضائله ، ولكل منهما بلاغة .

- وفي الليلة السادسة والعشرين مجموعة من أمثلة .

- وتروى الليلة السابعة والعشرون مجموعة من قصص ونوادر تدل كلها على أثر المصادفات في مجرى الحياة ؛ ثم تحكى عن الفأل والظيرة .

- وفي الثامنة والعشرين ذكر طائفة من أصحاب الطرب :

- وفي التاسعة والعشرين وفي الثلاثين بحوث لغوية .

- وفي الحادية والثلاثين كلام في الحرب ، وكلام في العقل والجنون .

وبهذه الليلة ينتهى الجزء الثانى .

- ويبدأ الجزء الثالث بالحديث عن الطعام والطاعمين ، فيدور الحديث في ذلك خلال ثلاث ليال : بقية الليلة الحادية والثلاثين ، ثم الليلة الثانية والثلاثين ، والثالثة والثلاثين .

— وفي الرابعة والثلاثين حديث عن العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، فلا بد للحاكم العاقل أن يفتح صدره لما يقوله الناس عنه ، والعلاقة بين الحاكم والمحكوم هي كالعلاقة بين الوالد وولده . . الخ .

— وفي الخامسة والثلاثين حديث في الجبر والاختيار ، وفي الحب والشهوة ، وفي النفس والروح .
— وتدور الليلة السادسة والثلاثون حول بحوث لغوية .

— والسابعة والثلاثون حول بعض الصفات الخلقية وتحديد عناصرها المكونة لها .

— وفي الثامنة والثلاثين ، والتاسعة والثلاثين ، والأربعين نواذر وأحاديث فيها فطنة وسرعة خاطر .
ويختتم الكتاب برسالتين يوجههما أبو حيان التوحيدي إلى الوزير ، ثم برجاء يوجهه إلى أبي الوفاء المهندس متوسلاً مستغيثاً .

نصوص مختارة

١— في خصائص العرب

إن العرب أهل بلد قفر ، ووحشة من الأنس ، احتاج كل واحد منهم في وحدته إلى فكره ونظره وعقله ، وعلموا أن معاشهم من نبات الأرض ، فوسموا كل شيء باسمته ، ونسبوه إلى جنسه ، وعرفوا مصلحة ذلك في رطبه ويابسه ، وأوقاته وأزمته ، وما يصلح منه في الشاة والبعر ، ثم نظروا إلى الزمان واختلافه ، فجعلوه ربيعاً وصيفاً ، وقيظاً وشتواً ، ثم علموا أن شربهم من السماء ، فوضعوا لذلك الأنواء ، وعرفوا تغير الزمان فجعلوا له منازل من السنة ، واحتاجوا إلى الانتشار في الأرض ، فجعلوا نجوم السماء

أدلة على أطراف الأرض وأقطارها ، فسلكوا بها البلاد ، وجعلوا بينهم شيئاً ينتهون به عن المنكر ، ويرغبهم في الجميل ، ويتجنون به على الدناءة ، ويحضهم على المكارم ، حتى إن الرجل منهم وهو في فج من الأرض يصف المكارم فما يبقى من نعتها شيئاً ، ويسرف في ذم المساوي فلا يقصر ، ليس لهم كلام إلا وهم يحاضون به على اصطناع المعروف ثم حفظ الجار وبذل المال وابتناء المحامد ، كل واحد منهم يصيب ذلك بعقله ، ويستخرجه بفطنته وفكرته ، فلا يتعلمون ولا يتأدبون ، بل نخائر (أى طبائع) مؤدبة ، وعقول عارفة ، فلذلك قلت لكم : إنهم أعقل الأمم ، لصحة الفطرة ، واعتدال البنية ، وصواب الفكر وذكاء الفهم . (ج ١ ، ص ٧٢) .

٢— صور لبعض رجال الفكر في عصره

(وردت في حديث الليلة الثانية)

... أما شيخنا أبو سليمان (المنطقي) فانه أدقهم نظراً ، وأقهرهم غوصاً ، وأصفاهم فكراً ، وأظفرهم بالدرر ، وأوقفهم على الغرر ، مع تقطع في العبارة ، ولكنة ناشئة من العجمة ، وقلة نظر في الكتب ، وفرط استبداد بالخاطر ، وحسن استنباط للعويص ، وجرأة على تفسير الرمز ، وبخل بما عنده من هذا الكنز .

وأما ابن زرعة فهو حسن الترجمة ، صحيح النقل ، كثير الرجوع إلى الكتب ، محمود النقل إلى العربية ، جيد الوفاء بكل ما جل من الفلسفة ، ليس له في دقيقتها منفذ ، ولا له من لغزها مأخذ ، ولولا توزع فكره في التجارة ، ومحبة في الربح ، وحرصه على الجمع ، وشدته على الميع ، لكانت قريحته تستجيب

له ، وغائمه تدر عليه ، ولكنه مبدد مند ، وحب الدنيا يعنى ويصم .

وأما ابن الحار ففصيح ، سبط الكلام ، مديد النفس ، طويل العنان ، مرضى النقل ، كثير التدقيق ، لكنه يخلط الدرة بالبعرة ، ويفسد السمين بالغث ، ويرقع الحديد بالثرث ، ويشين جميع ذلك بالزهو والصلف ، ويزيد فى الرقم والسوم ، فإ يجديه من الفضل يرتجعه بالنقص ، وما يعطيه باللفظ يسترده بالعنف ، وما يصفيه بالصواب ، يكدره بالاعجاب ، ومع هذا يصرع فى كل شهر مرة أو مرتين .

وأما ابن السمح ، فلا ينزل بفنائهم ، ولا يسقى من إنائهم ، لأنه دونهم فى الحفظ والنقل والنظر والجلد ، وهو بالمتبع أشبه ، وإلى طريقة الدعى أقرب ، والذي يحطه عن مراتبهم شيئان : أحدهما بلاهة فهمه ، والآخر حرصه على كسبه . . .

وأما مسكويه ففقير بين أغنياء ، وعبي بين أئنياء ، لأنه شاذ ، وأنا أعطيته فى هذه الأيام « صفو الشرح لا يساغوجى » وقاطيغورياس ، من تصنيف صديقنا بالرى ، قال : من هو ؟ قلت : أبو القاسم الكاتب غلام أبى الحسن العامرى ، وصححه معى . . .

فقال (الوزير) : يا عجباً لرجل صحب ابن العميد أبا الفضل ، ورأى من كان عنده ، وهذا

حظه ! قلت : قد كان هذا ، ولكنه كان مشغولاً بطلب الكيمياء مع أبى الطيب الكيمياى الرازى ، مملوك الهمة فى طلبه والحرص على إصابته ، مفتوناً بكتب أبى زكرياء ، وجابر بن حيان ، ومع هذا كان إليه خدمة صاحبه فى خزانة كتبه ، وهذا مع تقطيع الوقت فى حاجاته الضرورية والشهوية ؛ والعمر قصير ، والساعات طائرة ، والحركات دائمة والفرص بروق تأتلق ، وأوطار فى غرضها تجتمع وتفرق ، والنفوس على فواتها تذوب وتحترق ؛ ولقد قطن العامرى خمس سنين جمعة ، ودرس وأملى وصنف وروى ، فما أخذ مسكويه عنه كلمة واحدة ، ولا وعى مسألة ، حتى كأنه بينه وبينه سد ، ولقد تجرع على هذا التوانى الصاب والعقم ، ومضغ بقمه حنظل الندامة فى نفسه ، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه حين لم ينفع ذلك كله ؛ وبعد ، فهو زكى حسن الشعر نقى اللفظ ؛ وإن بقى فعساه يتوسط هذا الحديث ، وما أرى ذلك مع كلفه بالكيمياء ، وانفاق زمانه وكد بدنه وقلبه فى خدمة السلطان ، واحتراقه فى البخل بالدائق والقيراط والكسرة والخرقة ، نعوذ بالله من مدح الجود باللسان ، وإيثار الشح بالفعل ، وتمجيد الكرم بالقول ومفارقته بالعمل ، وهذا هو الشقاء المصوب على هامة من بلى به ، والبلاء المعصوب بناصية من غلب عليه . . . » .